

المناهج الغربية وتأثيرها على الفكر العربي المعاصر:
المنهج الأركيولوجي أنموذجا (ميشل فوكو-أبويعرب المرزوقي)

أ. لاكمي حنان*

مقدمة**

يعيش العرب اليوم أزمت فكرية متتالية تتعبّر عن تحلّف وتراجع الأمة العربية والإسلامية، ممّا شكّل شعورا بالضعف وخيبة الأمل أمام قوّة أوروبا، ولعلّه الدافع الأساس لثمة تلك المشاريع العربية المعاصرة المتمثلة في إسهامات وأطروحات تقيم تساؤلات نهضوية جادة ممّا يمكن أخذه من أسباب لأجل بعث الحياة في المجتمعات من جديد، والبحث عن الحقيقة ضمن مسار تاريخي لثقافة عربية إسلامية أصيلة بغرض فحصه وإياها كما فعل الغرب في مقاومته أزماته من قبل، فهو لم ينهض من فراغ، بل كانت مسيرة الفكر الغربي الحديث والمعاصر فكر مراجعة للماهيات والأصول، وفكر تقويض لميتافيزيقا الوحدة والاستمرارية... والدعوة إلى ممارسة نقد منتوج الحداثة والتنوير حتى يظلّ الفكر الغربي في كامل عافيته¹.

كانت أوروبا ولا تزال نموذجا يُحتذى به في الفكر العربي الإسلامي الذي عرف مؤخرا نهضة فلسفية يتقاطع أصحابها في الأهداف والآفاق، فيما تتباين من حيث توظيف أدوات القراءة، وما يؤكد ذلك مسألة المنهج الذي أضحي من القضايا المثيرة للجدل خاصة في الخطاب النقدي العربي، لا سيما وأن أغلب المفكرين أصبحوا يتهافون على مذاهب ومناهج غربية، واعتبارها السبيل الأوحّد والأصحّ للتواصل مع الحداثة إذ: "تحوّلت ساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى وكالات حضارية للغير، امتدادا لمذاهب غربية اشتراكية، ماركسيّة لبرالية، قومية، وجودية، وضعية، شخصانية، بنويّة، سريالية... إلخ، حتى لم يعد أحد قادرا على أن يكون مفكرا أو عالما أو فنانا إن لم يكن له مذهب ينتسب إليه"².

الأمر الذي جعل من الخطاب اليوم غريبا، فرغم تكوينه العربي الإسلامي إلاّ أنّه يحمل ملامح غربية مستوردة من خارج ذاته وثقافته الأصيلة، فلعلّها فوضى الانفتاح على الآخر، وهوما ولد في أذهاننا

* طالبة دكتوراه فلسفة، جامعة حسنية بن بوعلّي الشلف.

** - Nowadays ; the arabs live an intelectual crisis that reflects the retardation of the arabic and islamic nation ; this creates a feeling of weakness and disappoiment against Europe power which is still a model that the Arabs follow.

What proves that is the existance of western approaches in the temporary arabic culture. So what is the value of these western methodologies ? and what is their effects on modern Arabic thinking ?..

Keywords: mind, reforming, Renaissance, awareness, heritage

1- بن عدي يوسف، أسئلة التنوير والعقلانية في الفكر العربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، ص09.

1- حنفي حسن، مقّمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، 1991، ص 20.

تساؤلات عدّة وانشغالات نظرحها في إطار مقارنة فكرية ذات تحليل وصفي لمنهج غربي نسقطه على واقع الفكر العربي المعاصر علّنا نكتشف أساس عملية التأثير والتأثر المتضمنة من خلال ذلك.

تقوم المقاربة بين الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو-MICHEL FAUCAULT (1926-1984) أحد أبرز زعماء المنهج الأركيولوجي بأوروبا استناداً إلى كتابه "الكلمات والأشياء"، في مقابل كتاب "إصلاح العقل في الفلسفة العربية من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى اسمية ابن تيمية وابن خلدون" لأيي يعرب المرزوقي (1947) أحد المفكرين العرب، المشتغلين بحقلي الفلسفة والتراث الإسلامي. فما وجه المقاربة بينهما؟ وهل استمد المرزوقي منهجه من الغرب أم هو من إبداعه الشخصي؟

يعتبر علم الأركيولوجيا من العلوم الحديثة التي تهتم بالبحث والتنقيب عن الحقائق التاريخية المرتبطة بالماضي "فقد نجحت الأركيولوجيا في تغيير نظرة الإنسان إلى ذاته، وإلى تاريخه الماضي بحيث لم تعد معرفة التاريخ مرتبطة بروايات شفوية أو شهادات قابلة للتزوير، بل أصبحت دراسة تعتمد على معطيات تجريبية ومخلفات كل حقبة، فيتم تأسيس الحدث التاريخي على ما وجد من آثار تدلّ على كلّ حدث أو واقعة تاريخية"¹، وعلى غرار ذلك، استنبط المنهج الأركيولوجي الذي عرف تحوّلاً واضحاً مع فوكو، الذي نقل مفهوم أركيولوجيا من ميدان المعرفة في الفلسفة والفكر عامة، على أنّ فوكو "لا يستخدم المعالول وآلات القياس، ولكنه يستخدم الكلمة ليكشف عن طريقها أسرار أرشيف تأكلت كتبه وحفائقه لأنّ الأرشيف مجال موضوعي ولا شعوري في الوقت ذاته، يمكننا أن نصل إلى حقيقة السمة الكامنة فيه بأقلّ الانحرافات المنهجية"²، ولقد أثار هذا الفيلسوف الفرنسي في دراساته الأركيولوجية مجالا جديداً وهو ما سماه بالإبستمية épistémé³. ويأتي كتاب "الكلمات والأشياء" كأحد أهم الكتب باعتباره آخر وثيقة لدلالة الأركيولوجيا الغربية "التي اعتمدها لبلورة رؤية منهجية للتاريخ الأوربي تستند على التنقيب للبنى المعرفية القائمة على حقب ثلاث، لكلّ حقبة إبستمي خاص بها "تتجلى الأولى في عصر النهضة والتي تتميز بأنّ المعرفة فيها تقوم على التشابه ذو الأربعة وجوه، التوافق، التنافس، التماثل والتعاطف" ففوكو يرى في هذه المرحلة التي تبدأ من نهاية القرن السادس عشر بناءً أساساً يسود مختلف المجالات. "أما الحقبة الثانية فخصت للعصر الكلاسيكي حيث تقوم المعرفة فيه على الكلمات والأشياء أي الدال والمدلول والعلاقات بينهما...فما العصر الحديث، عصر القرن العشرين تحوّل الإنسان إلى مركز المعرفة...فتحوّل التاريخ الطبيعي إلى بيولوجيا ودراسة الثروات اقتصادياً واللغة إلى فقه اللغة...عندئذ يظهر الإنسان."⁴

¹ - أشرف صالح محمّد سيّد، المنهج الأركيولوجي في التاريخ، العدد الخامس عشر، مارس 2012، ص 08.

² - مهيب عمر، اشكالية التواصل في الفكر الغربي المعاصر، الدار العربية للعلوم، ط1-2005، ص 223.

³ - كميل الحاج، تصدع العقل العربي المعاصر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2010، ص 52.

⁴ - ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي، دار الانماء القومي، بيروت، ط1، ص 05.

⁵ - المرجع نفسه ص 45.

⁶ - المرجع نفسه ص 260.

لقد حاول فوكو استخدام المنهج الأركيولوجي للكشف عن الأنظمة المعرفية التي اختارها أن تكون مجالاً لدراسته وهي الحياة، اللغة، والاقتصاد والتي لا يمكن إثباتها إلا من خلال ما تقدمه هي بذاتها عبر التاريخ "فحين حدث الانزياح البيولوجي من البحث حول ما تعنيه الحياة إلى ما يقدمه الحي من عضويته وكيانه، وحين إنزاح كذلك البحث في الاقتصاد عما تعنيه الثروات إلى حركة هذه الثروات، وحين صار البحث في فقه اللغة ليس عن اللغة وأصلها بالآلات... فإنّ هذه القطاعات التي حدثت كذلك في لحظة تزامن تاريخي فيما بينها إنما تأتي بالما يحدث فيها ولها سواء كان ثمة أركيولوجي هناك ينتظر الكشف عنها، في النصف الثاني من القرن العشرين أو لم يكن على الإطلاق".¹ لقد كشف فوكو في خطابه الخاص عن أبرز بنى التاريخ المعرفي، ليلعن بعدها عن "موت الإنسان: "الذي ارتبط بالتطور الصناعي، العلمي والتكنولوجي في الفلسفة الغربية، الإنسان الذي أصبح موضوعاً للتحديث- حسب رأيه- وليس مجرد أداة له" هناك أمر واحد مؤكد هو أنّ الإنسان ليس أقدم ولا أثبت إشكالية طرحت ذاتها على المعرفة الإنسانية، فالإنسان اختراع تظهر أركيولوجيا فكرنا سهولة حدائه عهده وربما نهايته القريبة.. لو قدر لتلك الجاهزيات أن تختفي كما ظهرت لا يمكننا إلا استشعار وقوعه كما انقلب في أواخر القرن للرضية الفكر الكلاسيكي عندئذ يمكن الزهان على أنّ الإنسان سوف يندثر مثل زجه من الرمل مرسوم على حدّ البحر".²

سعى الخطاب الفوكوي من خلال كتاب الكلمات والأشياء إلى نسج منظومة فلسفية متكاملة ذات أبعاد إبستيمية تكشف عن مستويات وتحولات معرفية مختلفة في تاريخ الفكر الأوربي وثقافته، مما استوجب توظيف المنهج الأركيولوجي قصد تحديد شروط إمكان ذلك التحول المعرفي من فلسفة كلاسيكية إلى فلسفة حديثة، فإذا كان فوكو قد اعتمد منهج (الحفر) للتنقيب على مرتكزات وأصول الثقافة الغربية قديماً وحديثاً.

فما هو المنهج الذي استخدمه المرزوقي للكشف عن آليات الواقع الفكري والمعرفي لتاريخ الثقافة العربية الإسلامية ضمن مؤلفه: "إصلاح العقل في الفلسفة العربية" يقول أبو يعرب المرزوقي "إنّ النهوض الحقيقي الفاعل يشترط إصلاح العقل لإشغافه عريّة معاصرة ومميّزة عالمياً، تسعّد كونيّتها من صورتها الفعلية وخصوصيّتها من مادّتها الحضاريّة"،³ من هذا المنطلق رسم المرزوقي خطوات مؤلفه الموسوم بـ"إصلاح العقل في الفلسفة العربية- من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى إسمية ابن تيمية وابن خلدون" والمخّج حاول فيه العودة إلى أصول الثقافة العربية والإسلامية في مختلف مضامينها واتجاهاتها وفق طرح فلسفي معقّد، جمع فيه بين النمط المعرفي القائم على الرياضيات كأساس نظري وأساس آخر تاريخي ينصبّ على موضوع العلوم السياسية، فتوغّل بذلك في البنى المعرفية الإسلامية لإبراز دور الكلّي في شكل التاريخ الفكري العربي، والبحث عن أسباب تحوّل

¹ - ميشيل فوكو الكلمات والأشياء، مرجع سابق.

² - MICHEL FAUCAULT LES MOTS ET LES CHOSSES/PARIE/GALLIMARD 1966 P333.

³ - أبو يعرب المرزوقي، ثقافة وفنون، مجلة المستقبل، العدد 2012-2738 ص11.

الفلسفة النظرية والعملية إلى فلسفة واقعية ترسم معالمها في الفلسفة العربية، مستندا على المرجعية الفلسفية الأفلاطونية والمرجعية الدينية الحنيفية، فقيام الفلسفة اليونانية بواقعية الكلبي والنظري مقابل الديني القائل باسمية ذلك الكلبي، هو ما شكل صداما بين المرجعتين اليونانية والإسلامية-حسب المرزوقي مما دعا إلى ظهور محاولات لتجاوز ذلك الصدام، وبالتالي التوفيق بين الفلسفة والشريعة من خلال نزعات وآراء متباينة من حيث الوصل الفصل "الوصلية بفرعها الأفلاطوني (الصفوية) الأرسطي (المشائية) والفصلية بفرعها الأفلاطوني (الإشراقية) والأرسطي (الرشدية) رابطتين ذلك بشرط أعمق منه أطلقنا عليه اسم الحنيفية المحدثه العربية الوصلية بفرعها الكلام والتصوف بفرعها قبل الغزالي والفصلية بفرعها الكلام والتصوف الثانیان بفرعها بعد الغزالي لكي نتكمن من تحصيل خارطة الفلسفة العربية بنيويا وتاريخيا"¹. لقد حاول المرزوقي في مشروعه النقدي هذا الكشف عن حقيقة الإنسان بالتدرج عبر مراحل التاريخ المختلفة بدءا من الفلسفة اليونانية والهيلينستية ثم الوقوف عند الفلسفة الإسلامية مروراً بالفلسفة اللاتينية ووصولاً إلى الفلسفة الألمانية مركزاً على منزلة الكلبي النظري والكلبي العملي بين الواقعية والاسمية مسلطاً الضوء على ذلك التحول الاستقولوجي الذي عرفته الممارسة النظرية في المجال العربي والإسلامي مع كل من ابن تيمية (661-728) وابن خلدون (1332-1382) من حيث أنها "يمثلان غاية التقارب الذي انتهى إلى التطابق بين الثقافتين المقدمة للعمل على النظر أساساً له أي بين الأفلاطونية المحدثه والحنيفية المحدثه العربيتين"²، إن تلك المحاولات التي سبقت التصور التيممي والخلدوني لم توفق في التوحيد بين الثقافتين-حسب المرزوقي-بسبب قصور الإنسان وعجزه، خاصة بعد التأكيد على ضرورة التدخل الإلهي والإنساني في الفلسفة والشريعة الذي خلق تصورا لدى تلك الآساق فرضته الفلسفة الواقعية بادعاءاتهم حيث أنها لم تع ذلك الفرق الأكيد بين علم الله وعمله وبين طبيعة الذات الإنسانية، كل ذلك مما استوجب الأخذ بأسباب العلاج التي طرحها كل من ابن تيمية وابن خلدون.³ في محاولتها الإصلاحية بوصفها خاتمة العصر الوسيط وفتحة النهضة العربية بعد المرحلة المجهولة التي يطلق عليها اسم الانحطاط والتي امتدت من نهاية الرابع عشر إلى نهاية الثامن عشر³، فهما قد شكلا نقلة ثورية هامة في تاريخ الفلسفة الإسلامية. أما ابن تيمية فقد كونه نقدا نظريا أساسه تلك الغايات العملية التي تسعى إلى نقل الإنسان من عبادة الطبيعة إلى السيادة عليها، ولا يكون ذلك إلا بإصلاح أهل عصره وفق إصلاح بعض أساليب فكرهم المنحرفة والتي تقول بواقعية المعلوم النظري والأخذ بالمنطق الأرسطي كقانون ثابت ناظم للعقل، ليتحمل بذلك ابن تيمية مسؤولية المعالجة النظرية ونتائج العملية. وخلافا لما قام به ابن تيمية من نقض المنطق الأرسطي، سعى ابن خلدون في إصلاحه إلى نقض الأسس الفلسفية للتاريخ الأفلاطوني الذي تأسس عند أهل عصره كقانون ناظم للعقل السياسي، بذلك عمل ابن خلدون على العلاج العملي وفق نتائج

¹ - أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى إسمية ابن تيمية وابن خلدون، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، ص15.

² - المرجع نفسه ص13.

³ - أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية، مرجع سابق ص15.

نظريتك هي إذن اللحظة التيمية الخلدونية التي عبر عنها المرزوقي بأنها: "لحظة أصبحت تنظر إلى الكلّي" الذي يجمع الفكر الديني والفكر الفلسفي استناداً إلى مفهوم الدين الكوني والفلسفة الكونية كما حددها الإسلام في التوحيد بين اعتبار العالم التاريخي أو الروحي والعالم الطبيعي أو المادي.¹ فيها قد قاما بتحول معرفي من واقعية الرياضي المنطقي والسياسي التاريخي إلى ذريعتها.

يدخل خطاب المرزوقي ضمن تلك الخطابات النقدية التي تسعى لإزالة غبار الغموض والالتباس عن منعرجات الفلسفة العربية والإسلامية قديماً وحديثاً، وكما أنّ المنهج الأركيولوجي مع فوكو قد ساهم في ترك التاريخ العربي يقدم ما عنده من خلال الكشف عن تفاصيل الكلمات والأشياء، حاول المرزوقي استنطاق التاريخ من خلال أبرز أقطاب الثقافة الإسلامية ورموزها، مركزاً قراءته على قطبين استوجب البحث الوقوف عندهما والتبصر فيما أتيا به من اجتهادات وإعادة فلسفة النظر في تاريخ الفكر الإسلامي من خلالها. وقد يبدو جلياً مما سبق أنّ أثر المنهج الأركيولوجي الفوكوي كان واضحاً في التنقيب المعرفي الذي قام به المرزوقي في كتابه، إيماناً منه أنّه لا يمكن أن تنشأ فلسفة عربية من دون أن تقطع مع التغيّي الكاذب بالماضي والإقدام على النقد الجذري.²

عمل المرزوقي على الكشف عن آليات الواقع الفكري المعرفي بتاريخ الثقافة العربية الإسلامية ضمن أحفريات إبستيمية معمقة، بنظرة متجددة تسعى للوصول إلى مكونات الوقائع والأحداث لإثارتها وتحديد أبعادها قصد إخراجها من الجمود إلى الحركة الديناميكية للتفاعل مع الواقع المعاش بعد تخليصها من التجريد والمنطلقات النظرية. هو توليد سقراطي جديد للحقيقة بعيون عربية معاصرة ولعله (للامفكر فيه) الذي تحدّى به المرزوقي تلك الاتهامات الرجعية التي تُنسب -حسب اعتقاده- إلى بعض رموز الفكر العربي والإسلامي كبن تيمية من طرف أولئك الذين "جعلوا التركيز في الإصلاح الروحي النظري مقصوراً على الوجه الموجب من عمله فأخلاه من أهم ما فيه أعني الثورة الفلسفية المؤسسة لإصلاحه... ولم يبق من الإصلاح الذي سعى إليه ابن تيمية إلا وجهه السلفي الذي انقلب من ثمّ إلى ضده، وإذا بالحركة التنويرية الروحية التي أنشأها تصبح أساساً لأكثر النظم ظلامية في العالم الإسلامي منذ النهضة".³ لم يشأ المرزوقي لها أن تكون قراءة نمطية تنبش في الماضي دون أن تستخرج ما يجب إخراجها مما دفن في ركام التاريخ بل أراد تجسيدها لفكرة ضامنة للبقاء والاستمرارية، فكرة تبرز قيمة العقل الحقيقية وقدرته في فهم أسرار التاريخ واستيعاب تحولاته المختلفة، وبالتالي إزالة عوائق الإصلاح المحققة للنهضة.⁴ فالعلة العميقة التي حاولنا تحديدها في هذه الرسالة-يقول المرزوقي- ليست من جنس العلل الخارجية بل هي الصّورة الذاتية لنسق المسائل النظرية والعملية التي عالجتها الفلسفة العربية منذ نشأتها.⁴

¹ - فكر ابن تيمية الإصلاحي/15/04 2009/WWW.LIBERAILLS.ORG/VB/SHONTHEAD.

² - أبو يعرب المرزوقي، ثقافة وفنون مجلة المستقبل، مرجع سابق، ص 11.

³ - ينظر: أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية، مرجع سابق، ص 34.

⁴ - المرجع نفسه ص: 380.

من خلال ما سبق ورغم ما لمسناه من طرح معرفي جاد لأي يعرب المرزوقي إلا أننا مع ذلك يصعب تجاهل جملة الانطباعات المتناقضة التي علقنا في الذهن حتى أرقته بعد قراءة الكتاب فإذا كانت: "صدمة النص الفوكوي للقارئ الغربي تأتي مختلفة من دون شك عن الصدمة المستمرة التي لا يزال يمارسها على القارئ العربي نفسه... والصدمة ليست في صعوبة الشكل وتعرجاتها التاخرية فحسب ولكنها هي فيما يريد أن يقوله هذا الشكل بالذات"¹ فكيف يمكن تصوّر حجم الصدمة التي قد تشكلها قراءتنا لتلك الخطابات النقدية العربية والتي تشترك في استلهاً المناهج الغربية في نصوصها، إن ما قام به فوكو في شرحه للتحوّل المعرفي الذي شهدته أوروبا من العالم القديم إلى العالم الحديث في إطار مختلف القطيعة المعرفية للجنس الفكرية القديمة والتي فصلت كل مرحلة تاريخية عن أخرى، هي محاولة أركيولوجية للإجابة عن الإشكالية التي طرحت في كتاب الكلمات والأشياء، والتي تتمحور حول أسباب وشروط هذا التحوّل من الفلسفة الكلاسيكية إلى الفلسفة الحديثة وقد اتخذ المفكر الفرنسي فوكو من المنهج البنوي أساساً للربط بين دراسة التاريخ الأوربي وعلاقته بالمجال المعرفي أو علاقة الكلمات والأشياء بالمعرفة الغربية، فالخطاب عنده هو "بنية إدراكية لا شعورية ذات طابع فكري خالص تنمو وتتطور وفق نظام داخلي خاص وهو وسيلة لقوة تتشابه فيها مجموعة أفراد داخل مجتمع يشتركون في الأهداف والمصالح ويمثلون نسيجاً اجتماعياً وثقافياً متميزاً داخل المجتمع الإنساني في لحظة تاريخية محددة." لقد كان للمنهج الفوكوي المتميّز بصمة جليلة على خطاب المرزوقي من خلال كتابه إصلاح العقل في الفلسفة العربية والذي حاول فيه الإجابة عن نفس إشكالية فوكو ولكن من منظور عربي إسلامي أصيل، مفاده البحث عن الشروط النظرية والعملية في إمكان انتقال الفلسفة من الواقعية إلى فلسفة إسلامية انطلاقاً من العمل الإصلاحي لابن تيمية وابن خلدون، واختار المرزوقي المنهج الأركيولوجي للوصول إلى مقصده دون أن يتجاوز الجانب البنوي وأهميته في تحليله وربطه للوقائع المعرفية الحاصلة قبل الإصلاح التيميمي الخلدوني وبعده. ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من هاتين التجربتين المعرفيتين (العربية والعربية) رغم اختلافهما من حيث المنطلق أنهما يشتركان في نبذ الجمود الفكري والتأكيد على ضرورة تحرر الإرادة الإنسانية من كلّ ما يمكن إعاقته مسارها نحو التهوؤ والتجديد. إن الأخذ بالاعتبار الذاتية التي ألفها القارئ العربي في العلوم الإنسانية قد تنقص من أهمية المقاربة المنهجية بين نصين مختلفين من حيث المنطلق، فإذا ما سلمنا أنّ مسألة الأخذ بالمنهج الغربية في خطاب بقيمة خطاب المرزوقي ومكانته الفكرية والفلسفية إنما يعود إلى خبرته الواسعة في مجال الترجمة بسبب إتقانه لأبرز اللغات العالمية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية) إضافة إلى أنه قد نهل من مفكري وفلاسفة أوروبا اعترافاً منه أنّ: "من يدعون الحداثة ويتهموننا بها درسوا في تونس ولم يغادروها... في حين درست أنا في فرنسا على يد كبار الفلاسفة الغربيين وبالأحرى أعظم ثلاثة فلاسفة وهم جون ديوي جون بول سارتر وميشال فوكو... تعلّمت منهم لا لكي أكون حدثاً بل لأطور

¹ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص 26.

² إدريث كريزويل، عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1993، ص: 290.

فلسفتنا وفكرنا العربي الإسلامي¹ فمن الصعب رغم ذلك تقبل منطق وجود مناهج غربية في جل المشاريع الفكرية العربية المعاصرة مما يدفعنا للتساؤل عن تلك الحاجة الملحة التي دفعت مفكرينا لتبنيها رغم الإمكانيات المعرفية التي تزخر بها الساحة العربية المشجعة على العطاء والإبداع.

قد تحتم علينا اللحظة الحضارية الراهنة التطلع إلى ما وصل إليه الآخر-أيا كان هذا الآخر- والاستفادة من الدراسات والنظريات التي ينتجها والمناهج التي يعتمد عليها في سبيل النهوض بالأمة، فلا أحد ينكر أهمية التبادل الحضاري المتضمن لعملية التأثير والتأثر بين الأمم والحضارات قديما وحديثا والتي تعدّ أساسا لقيام علاقات إنسانية تأمل الشعوب في تقويتها قصد إنتاج ذات واعية بما حولها من منجزات وأفكار جديدة وتوظيف ما يصلح منها في خدمة أهداف الأمة وتحدياتها الراهنة وآفاقها المستقبلية شريطة أن لا يكون ذلك بابا يُفتح على تبعية لامتناهية لتقف حجر عثرة أمام تطلعات علمنا العربي الإسلامي إذ "لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمتة ومركزها بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها الأمة"².

خاتمة: لقد اختار أغلب مفكري الوطن العربي اليوم طريق التبعية الفكرية والتغريب³ طواعية -وهي أخطر أنواع التبعية، كونها تفتح أبواب التبعية الأخرى بأنواعها المختلفة كالسياسية مثلا والاقتصادية وغيرهما من المجالات -وذلك من خلال تبنيهم لمناهج قد لا تتناسب في أحيان كثيرة مع الهوية العربية والإسلامية تبعية قد لا نجد لها مبررات كافية لتناقضها مع ما يمتلكه من رصيد حضاري مميّز يغنينا عن ذلك كله أو ليس "العرب هم الذين عرفوا العالم حضارات الأمم القديمة وأنهم هم الذين صبغوا أوربا المدنية باستخدام العقل لمدة تقرب من خمسة قرون كما أنهم من علم الأمم التوفيق بين حرية الفكر مع استقامة الدين؟" ³ في الواقع إن تخلف الأمة وتراجعها ليس سببا رئيسا في تشكل تلك الأزمات الفكرية الراهنة فقد عرف التاريخ أفل حضارات وقيام أخرى وفق تداول زمني مألوف بينها دون ثبات حالة واستقرارها على الدوام. فنحن نعلم مسبقا أن الحضارة معنية بأن تقع بين حدين اثنين الميلاد والأفول⁴ ولعل التجربة اليابانية بعد نجاح مشروعها النهضوي خير دليل على التداول الحضاري الذي أبرزته اليابان من خلال تحديها وقوة إرادتها، فقد استطاعت تجاوز العزلة التي صاحبها منذ القرن السابع عشر لتصبح "في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دولة كبرى مستقلة عن القوى الغربية ومهيمنة بدورها على بعض المناطق الآسيوية" ⁵ إن أصل الأزمة الفكرية قد يكمن في غياب النُبي المعرفية لحقيقة الوعي بالماضي وتحديات الحاضر واستشراف العمل

¹ - أبو يعرب المرزوقي AR. A. FB. ME PAGE13391900/01/03/2013.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ص 43.

³ - هناك توافق كبير بين مصطلح التبعية والتغريب ولعل الفرق بينهما أن مصطلح التبعية استعمل في التداول الاقتصادي أكثر التغريب أوسع تداولاً في المجال الثقافي والفكري (مؤتمر تحديثات ما بعد الربيع العربي تجمع الإصالة مجلة البيان المركز العربي للدراسات الإنسانية ليبيا- طرابلس 2013 ص 11).

⁴ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 53.

⁵ - جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1964، ص 436.

المستقبلي لمواجهتها والتعامل معها ونقص التخطيط المنهجي (النظري والعملي) النابع من إرادة الذات العربية والإسلامية نفسها فارتباط الفكر العربي الإسلامي بمنهج غربية هو من سبيل تفرغ هذا الفكر من مدلوله الحقيقي والتدليل على مضامين لا تعكس صورته المفترض أن يكون عليها مما يستدعي إعادة النظر في العلاقة بين الدال والمدلول أي بين الكلمة ومدلولها في ثقافتنا العربية المعاصرة وضرورة استعادة الثقة في مكنسبات الأمة العربية الإسلامية وحمل (مشرط) النقد الموضوعي للذات وللغرب قبل تبني أفكاره ومناهجه لمجرد انبهارنا به، وهذا من أجل تصويب الخطأ وتصحيح المفاهيم ونتخلص بذلك من عقدة الآخر الذي نحتنا له صنما بداخلنا أخطناه بسور من الأفكار الوثوقية الدوغمائية لحماية مبادئ حضارة غربية مست قيم الإنسان المعاصر بمادياتها وفرط أنانيتها، مما جعلها حضارة تشرف على الزوال كما يشهد لها بعض أبنائها من أمثال فوكو في تبنيها لفكرة "موت الإنسان" السابق ذكرها، فنحن لن نضع أول نواة للنهضة إلا "بتسيخ قناعة ذاتية نلمسهلى كل فرد من أمتنا العربية الإسلامية لا سيما النخبة المثقفة منها، والتي مفادها ضرورة ولوج مرحلة الإبداع والتجديد وفي ذلك تحدّ لأنفسنا قبل أن يكون تحدّينا للآخر، لأننا نفرض من خلاله وجودنا وبقائنا في ظل مستجدات العصر وصراعاته المفروضة علينا والتي تجربنا على اختيار القرار الأمثل لأن نكون أ ولا نكون. .. !!